ابو العلاء كما تخيله ورسمه جبران خليل جبران

بين المعري وداعي الدعاة

— ٢ —

« أنا ذلك المريض رأياً وعقلاً
وقد أتيتك مستشفياً فاشفني »
داعي الدعاة

قلنا — في المقال السابق [1] — : إن داعي الدعاة لم يرد مناقشة ابي العلاء للاسترشاد والاستفادة منهُ بل قصد الى التحرش به قصداً ورمى الى استفزازه واحراجه وتسويء سمعته . وقد لخصنا المذهب الاسماعيلي الذي كان يدعو اليه داعي الدعاة ليعرف القارىء أن الغيرة الدينية كانت آخر شيء يدور بخلد داعي الدعاة ، وان الخصومة الشخصية والمآرب السياسية هي وحدها الحافز الاول والاخير . وما كان المعري ليجهل خطر داعي الدعاة ومرامي كلماته ، وفي ثنايا تواضعه الذي يذيعهُ في اثناء كلامه كبرياء وسخرية دونهما كل كبرياء وسخرية . ولعل القارىء لا يخفى عليه ما يعنيه بقوله : « انا ذلك المريض رأياً وعقلاً ، وقد أتيتك مستشفياً فاشفني » . فهو يقرع المعري ويسخر منهُ في صورة المتواضع المسترشد

وقد جامله المعري في رسائله بكل ما وسعه طوقه من مجاملة وغمره بعبارات الثناء والمديح رغبة في صد شره ودفعاً لشره ، فما أغنت هذه المجاملات إلا قليلاً ؛ وكان المعري لا يكاد يجيبه عن سؤال إلاّ حشر في تضاعيف اجابته امثال هذه الجمل :

« سيدنا الرئيس الاجل عصمة المؤمنين هدى الله الامم بهدايته وسلك بهم طريق الخير على يده » « ضوّأ الله المظلم ببصيرته وأذهب شكوك الافئدة برأيه » « ايد الله الحق بحياته » « أدام الله قدرته » « عصمة المؤمنين لا زالت القلوب معمورة بعظاته » « لا زال يُضوّي قلوب المؤمنين » « جمل الله بحياته الشريعة ونصر بمهجته الملة »

فإذا رآهُ يمثل ببيت للمتنبي في احدى رسائله اكبر منهُ هذا وعدهُ تفضلاً منهُ على المتنبي ، وقال — : « وأما تمثله ببيت أبي الطيب ، فلو بلغهُ ذلك لابتهج إذ كان مثله يتمثل بشيء مما نظمه » . ويبالغ المعري في مجاملته والتحبب اليه فيقول — : « ولو ناظر ارسطاطاليس لجاز أن يفحمه أو افلاطون لنبذ حججهُ خلفهُ »

---

(١) ارجع الى ص « ٦٧ » من مقتطف شهر « يوليو ١٩٣٠ »

وحاول المعري أن يتنصل من الرد عليه — لما رأى ما يرمي اليه متملا ً — بضعفه وشيخوخته « وأنه لو مثل في حضرة « داعي الدعاة » لعلم انه لم يبق فيه بقية لان يسأل ولا أن يجيب، لأن اعضاءه متخاذلة وقد عجز عن الصلاة قائماً وإنما يصلي قاعداً »

ثم يقول — : « وإني لاعجز — إذا اضطجعت — عن القعود ، فربما استعنت بالسان فإذا هم بإعانتي وبسط يديه لينهضني اضطربت عظامي لأنهن عاريات من كسوة كانت عليهن فرتهن منها الاوقات المتمادية ، وانما عنيت ما كان عليهن من اللحم[٢] »

ويقول — : « وسيدنا الرئيس الأجل صاحب ورع ودين وهداية ينتفع بها المهتدون ومن استرشد بمثل العبد الضعيف العاجز فانما شبه مثل من طلب في القتادة ثمر النخلة، وانما حمل سائله على ذلك حسن الظن الذي هو دليل على كرم الطبع وشرف النفس وطهارة المولد وخالص الخيم . ومن استرشد بسيدنا الرئيس الاجل المؤيد في الدين — أجزل الله حظ الاسلام بدوام ايامه — كان كطالب الذهب من معدنه » ويقول : « وهو بكتابه الي متواضع ، ومن انا حتى يكتب مثله لمثلي ، مثله في ذلك مثل الثريا كتب الى الثرى الخ »

ولكن ماذا يعني مناظره من ذلك كله إنه يريد من المعري — كما يقول — جواباً صريحاً يشفي النفس، وقد رأى في هذه المجاملات ما يضيع عليه القصد فقال في ختام رسالته انه يريد منه الاستدلال ورفض الحشمة وحذف تكلف الخطاب « سيدنا » و « الرئيس » وما يجري هذا المجرى ، لانه — فيما يزعم — لا يريد أن يتخلل كلامهما « شيء من زخارف الدنيا »

وقد طلب الى المعري أن يكف عن السجع حتى لا تضيع المعاني بين شتى اسجاعه، فقال —:

« ثم إن قام من الشيخ نشطة للجواب — أعفاني فيه عن قصد الاسجاع ولزوم ما لا يلزم فان ملتمسي فيه المعاني لا الالفاظ » . وادرك المعري ما يعنيه داعي الدعاة بهذا الرجاء، فلم يأل جهداً في اضاعة قسم كبير من رسالته الثانية في الدفاع عن السجع والانتصار له ،

---

(٢) وقريب من هذا قوله في رسالة الملائكة :

« وحق لمن أن لا يسأل ، فان سئل تعين عليه ان لا يجيب ، فان اجاب تعرض على السامع ان لا يسمع منه فان خالف باستماعه ففريضة أن لا يكتب ما يقول ، فان كتبه فواجب ان لا ينظر فيه ، فان نظر فيه فقد خبط خبط عشواء وقد بلغت سن الاشياخ وما صار بيدي قمر من هذا الطين والظعن الى الآخرة قريب الخ »

وقد عودنا المعري الافراط في التواضع كما عودنا الافراط في ذم نفسه وتنقصها دائماً ، فهو القائل :

« رويدك لا تغترر يا أخي بي فانا الرجل الساقط
ولو كنت ملقى بظهر الطريق لم يلتقط مثلي اللاقط »

وهو القائل : — « دعيت ابا العلاء وذاك مين ولكن الصحيح ابو النزول »

والقائل : — « تشابه اقبح الحشرات نفسي يكون لهن بالضيف ارتباط »

والقائل : — « اقررت بالجهل وادعى فهمي قوم فأمري وأمرهم عجب
والحق أني وانهم هدر لست نجيباً ولا هم نجب »

وقد أحسن المعري في دفاعه عن السجع وتخير لذلك الدفاع اقوى الحجج والبراهين وأيد دفعه بما استشهد به من الاحاديث والآيات القرآنية ليسد عليه هذه الطريق

دفاع المعري عن السجع

على أن السجع كاد يصبح من مقتضيات هذا العصر ولوازمه ، وقد أفلتت من داعي الدعاة عدة سجعات جاءت عفواً في رسائله لتغلب السجع عليه وعلى معاصريه جميعاً . ولم يكن بدعاً أن يولع المعري بالسجع بعد أن رأيناه يولع بكل قيد من قيود الحياة ، فيرضى نفسه بالحبس ، ويحرمها لذات الحياة ونعيما الجثمانية ، ويروّض نفسه على التزام ما لا يلزم في الشعر فيضاعف قيد القافية الى آخر ما أخذ به نفسه من هذه القيود

وقد دافع المعري عن السجع بأن الناس في الاسلام قد استحسنوا السجعات وكثرت في خطبهم ومراسلاتهم فقل ما يخطب بخطبة على منبر الا وفيها سجع . قال : «وأما خطباء العراق فلهم خطب تكون من اولها الى آخرها مسجوعة — على الباء او التاء وغيرها من الحروف — وروى ان بعض الملوك قال لبعض الفقهاء : — « بلغني انك تحب السجع فقال « نعم » . وقرأ عليه آيات من قوله تعالى : — « والشمس وضحاها [1] »

والفواصل التي جاءت في الكتاب الأشرف على ضروب منها ما هو متباعد لا يجري مجرى السجع ، وفيها ما يجري مجرى المسجوعات ، كقوله تعالى : — « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر » وكذلك قوله : — « ألم تر كيف فعل ربك بعاد [2] » . وقد ابدع المعري ما شاء له ظرفه وكياسته ان يبدع ، فقال يداعب داعي الدعاة ويسخر من الذين يحرمون السجع : « ولو علمت الحمائم الساجعة ان الله — سبحانه — او نبيه — ص — يكره سجعها على الغصون لخرست عنه وتبرأت منه ، وكذلك النوق الموصوفة بأنها ساجعات ، كما قال تميم بن نويرة : — « اذا حنت الأولى سجعن لها معاً » . ثم علل النهي عن السجع بقوله : — « وأنما كرهه النبي (ص) لأنه كثر في كلام الكهان فنهى عنه غير محرّم له ، وقد روى عنه كلام مسجوع الخ »

محور الرسائل

أما المحور الذي دارت عليه الرسائل فهو سر امتناع المعري عن اكل اللحم ، وقد احسن المعري ظنه بسائله في رسالته الاولى ، فلما رأى في رده عليه ما بيته له ، رجع

(١) يشير الى الآيات الكريمة : — «والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها والسماء وما بناها ، والارض وما طحاها ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها الخ»

(٢) يشير الى الآيات الكريمة : — « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الاوتاد »

على أعقابه وراح يلمس من المعاذير كل ما وسعه ، وما زال مناظره يضيق عليه الخناق حتى دفع آخر عذر له، وهو الفقر، فقال له :— « وقد كاتبت مولاي « تاج الامراء » — حرس الله عزه — ان يتقدم بازاحة العلة فيما هو بنفقة مثله من ألذ الطعام ومراعاته على الادرار والدوام، لينكشف عنه غاشية هذه الضرورة ويجري أمره على احسن ما يكون من الصورة[1] »

ولكن المعري اعتذر عن قبوله توسيع رزقه بأبلغ اعتذار وأرق اسلوب فقال : —

« وأما ما ذكره من المكاتبة في توسيع الرزق فيدل على افضال ورثه عن أب فأب، وجد في اثر جد ، حتى يصل النسب الى التراب . فالعبد الضعيف العاجز ما له رغبة في التوسع ومعاودة الاطعمة — وتركها صار له طبعاً ثانياً — وانه ما اكل شيئاً من حيوان خمساً واربعين سنة :

والشيخ لا يترك اخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه

وقد علم أن السيد الاجل تاج الامراء فخر الملك عمدة الامامة وعدة الدولة ومجدها ، ورد لو ان قلعة حلب وجميع جبال الشام جعلها الله ذهباً لينفقه تاج الامراء ، نصير الدولة النبوية — على امامها السلام وكذلك على الائمة الطاهرين من آبائه — من غير أن يصير الى العبد الضعيف من ذلك قيراط ، وهو يستحي من حضرة « تاج الامراء » ان ينظر اليه بعين من رغب في العاجلة — بعد ما ذهب ، وهو رضي ان يلقى الله — جلت قدرته — وهو لا يطالب الا بما فعل من اجتناب اللحوم ، فان وصل الى هذه المرتبة فقد سعد » .

وليس عجباً من داعي الدعاة هذا الاصرار ، وما هو بعجيب من أبي العلاء أن يصر على امتناعه وابائه رغم ما في هذا الاصرار من اسخاط مناظره العنيد .

وكيف يرضى ابو العلاء أن يريق دم حيوان ، بعد أن وصل به العطف على كل ذي روح إلى أبعد غاياته ، فأصبح يشفق على البرغوث وينهي عن قتله ويدلل على رأيه تدليلاً جديًّا غير عابث ولا هازل ، فيقول : —

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبرّ من درهم تعطيه محتاجا

ولماذا ؟ كلاهما يتوقى — والحياة له عزيزة — ويروم العيش مهتاجا

ثم يعطف للغراب ، فيطلب اليه ان يجزي الناس على ظلمهم عدواناً بعدوان واساءة باساءة ، إذ يقول : —

جز بالغراب وأنسد لا أرى أحداً إلا مسيئاً وأي الناس لم يجر

لوكنت حارس أثمار لم ينت وصادقوك — لما أخلوك من حجر

---

(١) وهذه بعض سخافات داعي الدعاة الذي نهى المعري عن التحسم !

ويتألم للعصفور يعذبه الوليد القاسي بلا رحمة ولا شفقة ، فيقول : —

« ورابك على طائر — رماه فتى لاه — فأوهى بسهمه[1] الكتفا
بكّر يبغي المعاش مغتبطاً فقصّ عند الشروق أو نتفا
كأنه في الحياة ما فرع[2] الغصن فغنى عليه أو هتفا »

وينهى عن أكل البيض فيقول : —

« ولا تأخذ ودائع ذات ريش فذلك أيها الانسان ضنّة »

الى آخر هذه الامثلة التي امتلأت بها لزومياته

ومن اظرف ما يلاحظه المتأمل أن المعري لم يظهر رضاءه عن ذبح الحيوان في الدار الآخرة — في رسالة الغفران — إلا بعد ان تخيل ان الحيوان يجد في ذبحه لذة لا تعادلها لذة ، وأنه — بعد أن يذبح — يعود الى سيرته الاولى فإذا عظامه قد اكتسين لحماً وسار يتخطر في مشيته في الفراديس كما كان يفعل قبل ذبحه

***

وما لنا نذهب بعيداً وقد لخص المعري فلسفته النباتية في قصيدته الحائية التي اتخذها داعي الدعاة تكأة يبرر بها هذه المناظرة الحامية الوطيس

فهو يقول في هذه القصيدة الرائعة التي لخص فيها شريعته النباتية أبدع تلخيص : —

« فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالماً ولا تبغ قوتاً من غريض الذبائح »

ويدافع عن ذلك بقوله في رسائله : —

ولا يقدر أحد أن يدفع أن الحيوان البحري لا يخرج من الماء إلا وهو كاره ، وإذا مثل المعقول عن ذلك لم يقبح ترك أكله — وإن كان حلالاً — لان المتدينين لم يزالوا يتركون ما هو لهم حلال مطلق

ثم ينهى عن استعمال اللبن في قوله : —

وأبيض أمّات أرادت صريحه لأطفالها دون الغواني الصرائح

وهو يريد بالأبيض « اللبن » ، ويقول في تبرير رأيه في رسائله هذه : —

وإذا قيل إن الله سبحانه وتعالى — يساوي بين عباده في الاقسام فأي شيء أسلفته الذبائح من الخطأ حتى يمنع حظها من الرأفة والرفق ؟ . ثم يقول : —

ولا تفجعن الطير — وهي غوافل — بما وضعت فالظلم شر القبائح

وقد دلل ابو العلاء على صحة رأيه هذا ، متخذاً من قول الرسول « أقروا الطير في

---

(١) الحجر علا الكتف (٢) علا

وكتابا » وما ورد في القرآن من النهي عن صيد الحرم – كتأنه يبرر بها قصده ويقول إنه لا لوم عليه اذا طلب التقرب الى رب السموات والارضين بأن يجعل صيد الحل آمناً كصيد الحرم
وقد نهى عن استعمال العسل – كما نهى عن استعمال اللبن – فقال :

«ودع ضرب النحل الذي بكرت له كواسب من ازهار نبت فوائح
فما احرزته كي يكون لغيرها ولا جمعته للندى والمنائح »

وعزز هذا الرأي في رسائله بقوله : – « لما كانت النحل تحارب الشائر عن العسل بما تقدر عليه وتجتهد أن ترده من ذلك فلا غرو ان غرض عن استعماله رغبة في ان تجعل النحل كغيرها مما يكره ذبح الاكيل وأخذ ما كان يعيش به لتشربه النساء كي يبدن » ، ولو عرف داعي الدعاة توكيد صديقنا الدكتور ابي شادي ان بعض النحل هادئ وديع لا تحارب الشائر عن العسل كالنحل الكرنيولي والقوقازي لاحتج بهذا الرأي على ابي العلاء

***

وقد ذكر ابو العلاء شيئاً من كلام العرب ليدلل به على صحة رأيه ، ويثبت ما يعانيه الحيوان من الالم ، كقول قائلهم ، يصف ما يلحق الناقة من الألم والوجد اذا فقدت فصيلها : –

« فما وجدت كوجدى ام سقب أضلته فرجعت الحنينا »

وقد قال المعري : – « وإن الضائنة تكون في محل القوم – وهي حامل – فاذا وضعت وبلغ ولدها شهراً أو نحوه اعتبطوه فأكلوه ورغبوا في اللبن وباتت امة ثاغية لو تقدر لسحت له باغية » وفي هذه الصورة من الروعة ودقة التصوير ما لا يخفى على القارئ .
وقد نظم المعري في لزومياته قصيدة طويلة يمدح فيها الديك ويتغنى بفضائله ويثني على الصائم أن يفطر على ازهاق روح فقال مخاطباً الديك – :

« ولو كنت لي ما ارهفت لك مدية ولا رام افطاراً بأكلك صائم »

وحبب أن يمتع القارئ نفسه بقراءة هذه القصيدة الفذة في لزومياته .
ولكن ما لداعي الدعاة وهذه الخيالات الشعرية ، ان الله قد أحلّ ذبح الحيوان وأكله فما قيمة هذه الاعتبارات بعد ذلك ، وما بال المعري يتأثر بالزهد في هذه الطيبات ؟ انه بلا شك رجل معاند جاحد ، ولا بد من ارغامه على أكل اللحم وإحراجه بكل وسيلة ، فاذا عجز عن ذلك فلا أقل من ان يظفر من كلامه بسقطة يظهره بها امام الناس بمظهر المعاند ، ثم يقول له في ختام رسائله : –

« وقيل وبعد – فانا أعتذر عن مراسله أذعته ، وزمان بالقراءة والاجابة شغلته ، لأني – من حيث ما نفعته – ضررته » [لها بقية] كامل كيلاني